وبهذا، يكون حلم اليقظة إسلوباً في الرؤية، يصبح الحالم فيه غاية، وكل ما عداه أدوات ووسائل لخدمته. ولكن الفارق بين حالة الطفل، والرجل الحالم، إن هذا الأخير لا يستطيع أن يتخلى تماماً عن خبراته في البناء الدرامي، وفي تنوّع أساليب المتع، التي ترضيه. فمن المستحيل أن نتصوّر طفلاً يحقق اكتفاء من خلال شهرته كفيلسوف. كما أن كثيراً من الناس يخلطون بين أحلام اليقظة، والحياة الواقعية. وهو ما تحدّث عنه غاستون باشلار في كتابه «جماليات المكان».

بعد هذا العرض السريع لأحلام اليقظة النمطية، دعونا نعود إلى الرواية، لندرسها كنتاج لحلم اليقظة من ثلاثة جوانب، فقط، رغم أنها تحتمل أكثر من ذلك بكثير.

الجانب الأول، إن بناءها الأساسي يستند إلى حلم يقظة نمطي. وليد مسعود يختفي في هالة من البطولة. فينفجر الجميع أسى وحباً، لوعة وشوقاً. ولكن وليد مسعود هناك، في كهف من الكهوف، يرقب ردود الفعل، وسوف يعود. وهو يعيد تحقيق كل أمانيه القديمة: يعيد مضاجعة أجمل النساء، يحفز الرجال والنساء لاستلال أقلامهم وكتابة تاريخ حياته. إن أربعة كتب على الأقل، ستكتب عنه لمجرد أنه اختفى. وهو قد عاقب، من خلال اختفائه، كل الذين أساؤوا إليه. طارق يقبل أخته، متواطئاً معها، في علاقتها بوليد. كاظم، الذي أساء لوليد، يعترف بحبه له من خلال انفجار انفعالي عنيف.

أما هشام الذي يبدو إن وليد كان يشعر بالذنب تجاهه، لأنه ــ أي وليد ــ أغوى زوجته مريم الصفّار، فقد انكشف كرجل كان يستدعي المومسات إلى بيته، وهو ما زال زوجاً. هل يلوم أحد مريم ووليد بعد ذلك؟

وبعد غياب وليد، نكتشف أن جواد حسني قد كرّس حياته لتأليف كتاب عن وليد. وطارق، ومريم، ووصال، وإبراهيم الخ... الجميع أصبح وليد جوهر حياتهم، وقضيتهم الوحيدة.

علينا هنا أن نتذكّر أساليب الأطفال في الإحتجاج على إهمال الأبوين لهم. إنهم يستعيدون مكانتهم، كمركز للعالم كله، حين يختفون، خالقين الوهم إنهم ماتوا. ويجد الطفل إكتفاء غير عادي حين يرى، في خياله، الحزن والأسى الذي تولد عند الجميع نتيجة لغيابه. وحين يعود، يستقبله الجميع بالحب والندم. أما الذين سبّبوا أذى للطفل، فهم الذين سوف يعاقبون بقسوة.

ألا نكتشف، في غياب وليد مسعود، الدوافع نفسها والنتائج ذاتها، ولكن بعد أن مرت في مصفاة التجربة الحياتية الطويلة؟

الجانب الثاني، هو القفز فوق الواقع الموضوعي، وغياب القدرة على الإقناع. لقد سبق وقلنا إن كل شخصيات الرواية، وبخاصة شخصية وليد مسعود، غير مقنعة، ومنطقها الحياتي لا يستقيم. فهو يقود ثورة لا وجود لها في أفكاره، ولا في تأمّلاته. يضع فلسفة، ينفيها بسلوكه. يحتل مكانة خطيرة في مجتمع مغلق، لا ينفتح بسهولة للغريب، لأسباب مبهمة.